



-1-

الذين استهانوا بدعوة علماء الأمة إلى الجهاد أو شككوا في استقلال مؤتمرهم و موقفهم لم يقدروا هذا الأمر الخطير الكبير حق قدره.

الأصل في الجهاد أنه قرار مصيري يصدر عن رأس الأمة وأعلى سلطة فيها، ولكن الأمة فقدت قيادتها السياسية الحقيقة منذ أن بدأت الدولة العثمانية بالضعف والانهيار، ولم تسترجعها حتى اليوم.

فكان آخر دعوة عامة إلى الجهاد هي دعوة السلطان محمود الثاني سنة 1225 هـ (1810) عندما أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية (وأرجو أن يستدرك علي أخي الدكتور راغب السرجاني إن كنت مخطئاً).
بعد ذلك دُعيت الأمة إلى الجهاد مرة واحدة، ثم لم تُدعَّ قط.

كان ذلك عندما أدخل الاتحاديون الدولة في الحرب العالمية ودفعوا السلطان محمد الخامس إلى إعلان الجهاد ضد الحلفاء، ولكن تلك الدعوة لم تكن ذات معنى لأن كل بلدان العالم الإسلامي كانت تحت الاحتلال الأوروبي في ذلك الحين.
منذ ذلك اليوم لم تُدعَّ الأمة دعوة عامة إلى الجهاد، حتى عندما سقطت فلسطين وضاعت القدس! نعم، أفتى علماء كثيرون بوجوب الجهاد عندئذ، في القارة الهندية وفي غيرها، ولكنها كانت دعوات متفرقة لا جامع لها، أو أنها كانت محدودة بحدودها الجغرافية الضيقة ولم تشمل الأمة كلها، كما حصل قبلها عندما سقطتالجزائر وتونس ومصر وببلاد الشام وجاوة والملايا وتركستان وغيرها من بلاد الإسلام.

لقد ضاعت بلاد المسلمين بلداً بعد بلد ولم تنفر الأمة إلى الجهاد، ثم تحررت تلك البلدان في الظاهر وبقيت رهناً للمستعمر الأجنبي في الباطن، وغدا قادتها دمّي يحركها اللاعبون الكبار، وأريد لهذه الفريضة العظيمة أن تنسى ولهذا الركين من أركان الإسلام أن يموت، وسكت علماء الأمة دهراً فكرسوا ذلك الواقع المر الأليم، ثم وقع الزلزال.

ارتجأْت أرض الشام بشورة الأحرار، فما زال رجُعُ الْهَزَّةِ يمتد ويتعاظم حتى بلغ أدنى أرض الإسلام وأقصاها، فاستيقظ النائمون وقام القاعدون وهتف الساكتون، واسترجع علماء الأمة أخيراً دورهم المفقود، فتصدروا للقيادة بعدما عجزت

قيادات الأمة السياسية وخيبت الآمال، ووقفوا موقف الذي كان ينبغي أن يقفوه منذ سنين، وأعلنوا الجهاد.

علماء الأمة البررة الصادقين شكرنا ودعاؤنا المخلص، ونقول لهم: لن نسامحكم إذا سكتم بعد اليوم مع الساكتين، ولن ننتظركم إذا قعدتم مع الفاسدين، فإن الأمة عرفت الطريق ولن تضل عنه بعد اليوم بإذن المولى الكريم.

-2-

لما رأى بعض الناس أن دعوة علماء الأمة إلى الجهاد اتفقت في التوقيت مع الموقف الأميركي الجديد افترضوا أن بين الأمرتين رابطاً خفيّاً، وقالوا إن العلماء لم يتحركوا إلا بموافقة وإيعاز من حكومات دولهم التي تحرك ضمن المحددات والضوابط الغربية والأميركية.

أنا أحب التفكير النقدي وأعتبر أن تحرير العقول كان واحداً من مزايا ثورات الربيع العربي، فقد تعاظم الوعي وتوقف الناس عن الاتباع الأعمى والتسليم المطلق، ولكن النقد البناء يتتحول إلى رفض عشوائي ما لم تضبطه ضوابط من التدقيق والتفكير المنطقي، فإذا طبقنا تلك الضوابط على موقف علماء الأمة الأخير فماذا نجد؟

أنا لا أعرف كل المشاركون في المؤتمر ولكني أعرف منهم كثرين، وقد نظرت فلم أجده أحداً منهم من علماء المسلمين الذين يُملأ عليهم ما يقولون وما لا يقولون، بل وجدت ثلاثة من العلماء الأحرار الآخيار الذين عرفا لهم سوابق في الفضل والجهر بالحق في مواطن ضعف فيها عن الجهر بالحق غيرهم.

ثم وجدت مزيداً من الاطمئنان في الجهة الداعية وفي مكان عقد المؤتمر، فغلب على ظني -إلى درجة قريبة من اليقين- أن هذا المؤتمر بعيد عن الإملاء والسيطرة، وأنه مشروع مخلص قامت به فئة صادقة صالحة من علماء الأمة المعترفين.

ثم إن هذا المؤتمر لم يولد فجأة، بل سبقته إرهاصات وإشارات، بعضها جاء من علماء السنة الأولياء في لبنان، وبعضها من علماء الكويت ذوي الرجولة والشهامة، ثم من علماء السعودية الذين وقفوا مع الثورة السورية بنبل ومروءة منذ أيامها المبكرة.

وإن الناظر في الساحة الإسلامية خلال الأسابيع الأخيرة ليرى سطحاً يغلي ويفور وينذر بالانفجار، فثمّ كان المؤتمر هو الانفجار وهو التعبير الحقيقي عن إرادة الأمة وعن موقف علمائها الكبار.

ثم إن الإدارة الأميركيّة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد ضغط شديد من عدد كبير من الشيوخ والنواب، وبعد نقد قاس لموقف الرئيس شارك فيه كثير من الأكاديميين والسياسيين، بما فيهم الرئيس السابق بيل كلينتون.

ومع ذلك فإن موقف أوباما كان مجرد استجابة باهتة لتلك الضغوط ولم يقدم شيئاً حقيقياً من شأنه أن يغير الواقع الميداني، فقد لاحظ معلق جريدة نيويورك تايمز، بيتر بيكر، أن الرئيس دفع دفعاً إلى ذلك الموقف ولم يحمله على محمل الجد الكامل، حتى إنه ترك إعلانه لمستشار الأمن القومي بنيامين رودس، فيما كان هو نفسه مشغولاً بمخاطبة اجتماع للشواذ في غرفة أخرى في البيت الأبيض!

وهو يقول أيضاً: "إن أوباما لا يريد أبداً أن يجسم الصراع العسكري، إنه يريد فقط أن يطوله بدرجة تكفي لتحقيق تسوية سياسية على أساس مفاوضات بين الطرفين".

هذا ما تريده أميركا، فاعقلوا يا أيها الناس ولا تضعوا فيها ذرة من أمل!

-3-

مع كل الشكر والتقدير لعلمائنا الكرام ولدعوتهم الصريحة الشاملة إلى الجهاد، إلا أنني كنت أفضل أن يستنفروا الأمة إلى الجهاد بالمال وأن يسعوا إلى مدنا بالسلاح وبكل أنواع الإغاثة الطيبة والإنسانية، وأن يستثنوا الجهاد بالرجال (ما عدا الخبراء

العسكريين والأطباء والمسعفين) لأن في سوريا ملليون مجاهد تطوعوا للقتال ووقفوا في صفوف طويلة ينتظرون من يجهزهم بالسلاح، فمن رأهم قال: كأنما فيهم نزل قوله تبارك وتعالى: {ولَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتُوكُمْ لَتَحْمِلُهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلُّو وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيقُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ حَرَنَا أَلَا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}.

إن سوريا اليوم تشبه عمارة شبّت فيها النار، فاندفع عدد من شبابها لإطفاء النار وإنقاذ العجزة والنساء والأطفال. إن النخوة والشهامة ستحملان شبان الحي كلهم على المساعدة، ولكن تخيلوا ماذا يكون الحال لو أنهم اندفعوا كلهم إلى العمارة المحترقة للمساعدة في الإنقاذ.

سوف يختلط الداخلون بالخارجين وتزدحم الممرات ويصطدم الناس بعضهم البعض على الأدراج وينحسر بعضهم على الأبواب، وبالنتيجة سيختلط الحابل بالنابل ويتحول الإنقاذ إلى مأساة.

خيرٌ من هذا أن يترك الجيران لشباب العمارة مهمة الإنقاذ في داخلها، فإنهم أدرى بتفاصيلها وأعلم بمسالكها ومداخلها ومخارجها، وأن يمدوهم بالمساعدة من خارجها، فـيأتوا بسيارات الإطفاء ويمدوا خراطيـم الماء، ويوفـروا العناية الطبية لمن لدعـتهم النار أو أصحابـم الاختناق، وسوف يكون لهم من بعد دورٍ -أرجـو أن لا ينسوهـ في ترميمـ المـبني وتعـويضـ سـاكـنيـهـ عـمـاـ فقدـوهـ فيـ الحـريقـ مـنـ مـالـ وـأـثـاثـ.

فيـاـ أيـهاـ المـسـلـمـونـ:

بارك الله فيـيـ نـيـاتـكـ الصـادـقةـ وـفـيـ نـفـرـتـكـ المـخلـصـةـ، وـلـوـ أـحـدـ مـنـ أـهـلـ الشـامـ أـنـ يـحرـمـهـ هـذـاـ الشـرـفـ العـظـيمـ، وـلـكـ أـسـهـلـ عـلـيـكـ وـأـجـدـيـ عـلـيـنـاـ أـنـ تـمـدـدـنـ بـأـسـبـابـ النـصـرـ، وـلـنـ تـغـرـبـ بـأـمـوالـكـ لـأـنـفـسـكـ، فـإـنـ الـوـاحـدـ مـنـكـ لـيـسـتـطـعـ أـنـ يـسـدـ عـشـرـ ثـغـرـاتـ لـاـ وـاحـدـةـ لـوـ أـنـهـ جـهـزـ عـشـرـةـ مـنـ الـمـجـاهـدـينـ الـغـزـةـ، وـلـهـ أـجـرـهـ جـمـيعـاـ، فـإـنـ مـنـ جـهـزـ غـازـياـ فـقـدـ غـزـاـ (ـكـمـاـ فـيـ الـحـدـيـثـ الصـحـيـحـ).

إنكم تستطيعون أن تقدموا كل شيء، ونحن بحاجة إلى كل شيء: السلاح بأنواعه كلها خفيفه ومتوسطه وثقيله، والكثير الكثير من الذخيرة فإن الحرب أكالـةـ، والكثير الكثير من الدواء فإن المصابين لا يـكـادـ يـحـصـيـمـ العـادـوـنـ، والـكـثـيرـ الـكـثـيرـ منـ الـغـذـاءـ فإنـ الـمـشـرـدـيـنـ مـلـاـيـنـ، ولـقـدـ اـتـسـعـتـ الـمـحـنـةـ وـبـلـغـتـ الـحـاجـةـ بـالـنـاسـ -ـكـمـاـ قـلـتـ مـرـةــ أـنـ الـمـرـءـ لـوـ قـذـفـ دـرـهـمـاـ فـيـ الـجـوـ فـلـاـ بـدـ أـنـ يـسـقطـ فـيـ يـدـ مـحـتـاجـ!

-4-

لكـنـ رـيـماـ جـاءـ يـوـمـ قـرـيبـ تـحـتـاجـ فـيـ الشـامـ إـلـىـ جـيـشـ الـأـمـةـ الـكـبـيرـ، فـإـنـاـ اـسـتـنـفـرـنـاـكـ يـوـمـهاـ وـدـعـونـاـ الـأـمـةـ إـلـىـ الـجـهـادـ عـلـىـ أـرـضـ الشـامـ فـلـاـ تـقـولـواـ:ـ بـدـلـتـمـ رـأـيـكـمـ وـغـيـرـتـمـ أـقـوـالـكـمـ،ـ فـإـنـ الـفـتـوـىـ عـلـىـ مـقـتـضـىـ الـحـالـ،ـ وـالـحـالـ مـتـغـيـرـةـ يـوـمـاـ بـعـدـ يـوـمـ.

نـحنـ الـآنـ قـادـرـونـ عـلـىـ ردـ ثـلـاثـيـنـ أـلـفـاـ مـنـ عـصـابـاتـ الـرـافـضـةـ الـذـيـنـ اـجـتـمـعـوـاـ فـيـ أـرـضـ الشـامـ،ـ وـنـرـجـوـ أـنـ تـكـوـنـ مـصـارـعـهـمـ فـيـهـاـ بـإـذـنـ اللـهـ،ـ وـلـكـ مـاـ أـدـرـانـاـ أـنـ تـتـدـفـقـ عـلـىـ الشـامـ جـيـوشـ الـمـعـتـدـيـنـ بـالـمـلـاـيـنـ؟ـ

وـمـاـ أـدـرـانـاـ أـنـ تـتـسـعـ هـذـهـ الـحـرـبـ وـتـطـوـلـ وـأـنـ تـكـوـنـ هـيـ الـمـدـخـلـ إـلـىـ أـحـدـاثـ آـخـرـ الـزـمـانـ وـالـبـوـاـبـةـ إـلـىـ الـمـلـحـمـةـ الـكـبـرـىـ؟ـ

فـإـذـاـ بـدـأـتـ الـمـلـحـمـةـ فـهـلـ يـعـقـلـ أـنـ يـخـوضـهـ أـهـلـ الشـامـ وـحـدـهـ بـلـاـ ظـهـيرـ مـنـ إـخـوانـهـ الـمـسـلـمـيـنـ؟ـ

لـقـدـ آـنـ الـأـوـانـ لـيـفـتـحـ كـلـ مـسـلـمـ كـتـبـ الـحـدـيـثـ وـيـقـرـأـ مـاـ وـرـدـ فـيـ أـخـبـارـ تـلـكـ الـمـلاـحـمـ،ـ وـلـيـعـدـ نـفـسـهـ لـاـسـتـقـبـالـهـ فـيـهـاـ قـدـ تـأـتـيـ غـيـرـ بـعـيدـ.

إـنـ الـغـيـبـ حـقـ،ـ وـمـاـ هـوـ آـتـ آـتـ وـلـوـ بـعـدـ حـيـنـ،ـ وـلـقـدـ لـبـثـنـاـ حـيـنـاـ مـنـ الـدـهـرـ نـقـرـأـ تـلـكـ الـأـخـبـارـ كـمـاـ نـقـرـأـ قـصـصـ الـخـيـالـ الـتـيـ لـاـ تـكـوـنـ،ـ وـلـمـ نـظـنـ أـنـاـ نـرـاـهـاـ فـيـ عـمـرـنـاـ أـبـداـ.

وـلـكـنـ أـلـيـسـ جـيـلـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ هـوـ الـذـيـ سـيـعـيـشـ غـمـرـاتـهـ؟ـ

لقد ثارت الشعوب وتقدمت، وتأخر علماؤها حتى كادت تفقد الثقة بهم وتُعرض عن الاستماع إليهم.

وها هم أولاء قد ثاروااليوم كما ثارت الشعوب، وإنها خطوة أولى في الاتجاه الصحيح، إن لم تتبعها خطوات واسعات ضاغط المؤتمر وتبعد الدعوة العظيمة إلى الجهاد، فلا تضيّعوه ولا تبدّدوها يا أيها العلماء، ولا تسقطوا الرأية بعدما رفعتموها في مؤتمركم العظيم.

إن أحرار سوريا ينتظرون السلاح والإغاثة، وكما قال قائلكم: نريد أفعالاً لا نريد مزيداً من الأقوال؛ بعد اليوم لا توصيات ولا بيانات ولا شجب واستنكار، ليس بعد اليوم إلا عمل وجihad.

واني لأرجو ويرجو كل مسلم أن تكون المواقف الجريئة التي وقفها علماء الأمة مؤخراً، والتي بلغت ذروتها في مؤتمر إعلان الجهاد، أن تكون إيزاناً بعودة العلماء إلى الصفوف الأمامية وإلى قيادة الأمة كما ينبغي لوارثي النبوة أن يفعلوا، وأن يكمل علماؤنا المشوار ويسترجعوا دورهم المفقود، الدور الذي تريد الأمة منهم أن يلعبوه والذي توقفوا عن لعبه منذ قرون وقرون.

وسوف أعرض في المقالة الآتية -إن شاء الله- تفصيل هذا الدور المفقود.

الزلزال السوري

المصادر: